من تراب (٢٨٢) فبصرك اليوم حديد ! (*)
الطريق!

تتعدد أسباب انكشاف الغطاء أمام الآدمى لو تفطن لما يمر به ولا يستوقفه .. كنت راقداً على ظهرى أتابع فى جهاز " المونيتور " مسار القسطرة التى يمررها الخبير الفرنسى الماهر جان فاجيديه فى شبكة الشرايين التاجية المحيطة بقلبى الذى أثخنته معى فى رحلة الحياة .. لم تكن هذه هى المرة الأولى التى أجرى فيها القسطرة العلاجية منذ أجريت التشخيصة الأولى فى سبتمبر ١٩٨٩ بمعرفة الصديق الأستاذ الدكتور الخبير المصرى الرائع جلال السعيد تبعتها جراحة " البای باس " فى مستشفى القديس لوقا فى هيوستن بالولايات المتحدة فى ١٦ يوليو ١٩٩٠ .. مضى (١١) عاما على هذه الجراحة قبل أن تئن الشرايين التاجية، فلاحقها الدكتور السعيد بقسطرة علاجية ناجحة وضع فيها دعامتين للتوسعة على اختناقين يضيقان على مجرى الدم .. ومن أيامها وصرت مواظبا على هذه القسطرة العلاجية مع الدعامتين، كل سنتين .. فلم أكن مستجدا وأنا أتابع عمل الخبير الفرنسى على شاشة " المونيتور " بأحد مستشفياتنا الكبرى .. وبالاعتياد زال القلق الذى يعترينى فى البدايات، ولكن فجأة انقطع التيار الكهربائى، وانقطع " المونيتور " واضطر الطبيب الفرنسى للتوقف عن العمل .. وانحبست الأنفاس، بما فيها نفسى طبعا .. ولكن الدكتور فاجيديه كان أهدأ الجميع .. يبدو أن آلاف العمليات التى أجراها قد أكسبته إلى جوار الخبرة ثقة وطمأنينة وثباتاً .. فى هذه الدقائق

(*) المال ٢٠٠٩/٦/٢٣

العشر التى مرت علىّ وكأنها عشرة قرون، كنت معلقاً بين السماء والأرض .. سلك القسطرة ناعم بمكانه بداخل الشرايين لا يزحزحه الخبير الفرنسى لأنه لم يعد يمكنه متابعته، وليس أمامه إلاّ أن يسحبه أو يصبر حتى عودة التيار الكهربائى المقطوع .. تنفست الصعداء مع الجميع حين عاد واستأنف الطبيب عمله، لأرى بوضوح أن مصائرنا تبدو فى لحظة معلقة على شعرة .. هذه اللحظة ومضة فارقة ينكشف عنك فيها الغطاء فيبدو بصرك حديداً يرى ما لم يكن يراه .. مضى الطبيب يحرك سلك قسطرته بمهارة، وسمعته يطلب موافاته بالدعامة الأولى .. التقطت أذنى رقم المقاس المطلوب، وتابعت المساعدين وهم يبحثون عنه، لألتقط أنفاسى حين وجدوه .. ولكن ما للمقاسات ودعامات شرايين قلبى .. لقد عاد الطبيب الفرنسى يطلب مقاسا آخر للدعامة الثانية، وتابعت فى الثانية كما تابعت فى الأولى رحلة البحث عنه .. لم يرحنى أنهم لم يعثروا له على المقاس المطلوب بالضبط، فاستعاض عنه بمقاس قريب .. لا أدرى لماذا ورد إلى خاطرى فى هذه اللحظات حيرتى حين لا أجد مقاس ٤٢,٥ لحذاء أعجبنى، فأتماحك فى نصف نمرة فوق أو تحت لأن الحذاء يروقنى، ولا أحب أن يفوتنى .. ولكن المقاس هنا مقاس " دعامة " سوف تستقر بداخل الشرايين التاجية المحيطة بقلبى لتوسع المجرى على الدماء .. ترى هل يمكن أن يرد عليها مايرد على الأحذية من تليين لتتسع وتريح، أم أنها قد تحتاج شدّها على " قالب " لتوسعتها إذا استعصت ؟! ..كنت أتابع بقلب واجف رحلة البحث عن المقاس ثم رحلة " الدعامة " وهى تدفع بالشرايين لتستقر فى المكان المطلوب . وللمرة الثانية، بنفس العملية، ينكشف الغطاء الكثيف لأبصر كيف أننا فى كل لحظة بيد السماء، تمنّ علينا إذا منت، وتحرمنا إذا ضنت، ولا مطمع لنا إلاّ فى لطفها ورحمتها .

خرجت من غرفة العمليات وأنا أحمد الله عزّ وجل أن كشف عنى الغطاء مرتين فى برهة وجيزة، لأرى فى هذه اللحظات الفارقة ما قد تعزّ رؤيته فى السنوات الطوال، وقد يمضى بنا العمر دون أن نراه إلاّ لحظة

فراق الحياة التى فيها قال القرآن المجيد: " وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ".